ومما رأى القرشيون في أنفسهم. وما علموه من تاريخ جزيرتهم وما حولها، علموا أن سنة الله لا تتخلف في نصر الحق وإن عظمت التضحيات، وتكاثرت الصعاب. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٣٨ـ موسى والخضر

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (الكهف: ٦٠).

وهذه قصة مما انفرد به القرآن الكريم، جاءت بين القصص الذى تحدى به القرشيون النبى ﷺ واستعانوا في هذا بأحبار اليهود.

وللقصة ارتباطها بالسياق العام لسورة الكهف، وما فيها من العبر، وما توجه المسلمين إليه من آداب التعامل وطلب العلم، وما تدفع به عن الإسلام. هذا في نفس الوقت الذى تبين فيه المستوى الكريم الذى كان فيه موسى، والمستوى الذى انحدر إليه أحبار اليهود بعد أن طال عليهم الأمد، ورضوا أن يناصروا أهل الشرك على أهل التوحيد.

ومن ناحية أخرى: فتحت هذه القصة أبوابا من الحوار بين مستويات العلم في الإسلام، وما كثر فيه القول عن علم الشريعة وعلم الحقيقة، وعلم الظاهر وعلم الباطن، والعلم المنقول والعلم اللدنى الذى يفيضه الله على من يشاء من عباده.

وما ترتب على هذا من صراع بين الفقهاء وبعض المتصوفة حول مدى حجية مكاشفاتهم، وما تشرق به قلوبهم من علم..

وما أظن في القرآن قصة دار حولها من الحوار، وتمسكت بها أكثر من فرقة إسلامية، واتخذتها سندا فيما سلكته من طريق، أكثر مما كان مع قصة موسى والخضر..

ولنبدأ بما جاء عنها من أحاديث وأكثرها تفصيلا حديث ابن عباس وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى، وقد جاء بروايات متعددة، كما أخرج أبو داود من الحديث طرفين مختصرين عن الغلام الذى قتله الخضر.. وقد اختار ابن الأثير في جامع الأصول (٢: ٢٩٧- ٣٠٦) الرواية الآتية أصلاً، ثم ذكر أجزاء من الروايات الأخرى. وفى هذه الرواية يؤكد ابن عباس، أن موسى في هذه القصة

هو موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل، وينفي أي زعم بأن المقصود رجل آخر من بنى إسرائيل يحمل نفس الاسم.

جاء في حديث ابن عباس: سمعت أبى بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قام موسى عليه السلام خطيبًا في بني إسرائيل. فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذ لم يُردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبدًا من عبادى بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: أي رب، كيف لى به؟ فقيل له: احمل حوتًا في مكتل، فحيث تفقد الحوت: فهو ثَمّ، فانطلق. وانطلق معه فتاه يوشع بن نون..)) ويسير الحديث الشريف يعرض لنا لقاء موسى والخضر والمراحل الثلاث لحوارهما: السفينة والغلام والجدار.. وفى ختام الحديث نسمع تعقيب المصطفى ﷺ: ((يرحم الله موسى، لوددت إنه قد صبر حتى كان يقص علينا من أخبارهما)) قال: وقال رسول الله ﷺ: ((كانت الأولى من موسى نسيانا، قال: وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة، ثم نقر في البحر، فقال له الخضر: ما نقص علمى وعلمك من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر)) وزاد في رواية: ((ما نقص علمى وعلمك وعلم الخلائق من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر)) صدق رسول الله.

شخصية الخضر:

وقد دار حوار كثير حول شخصية الخضر، أبرز جوانبه مدى حياة الخضر. والذى عليه الجمهور أنه مات، لأنه لو كان حيا لزمه المجيء إلى النبي ﷺ والإيمان به واتباعه. واستدلوا بالحديث الشريف: ((والذى نفسى بيده، لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى))

هذا ما استند إليه الإمام ابن الجوزى، وعقب عليه بقوله: فإذا كان هذا في حق موسى، فكيف لم يتبعه الخضر لو كان حيا، فيصلى معه الجمعة والجماعة، ويجاهد تحت رايته (انظر جامع الأصول ٢: ٢٩٨ ـ ٢٩٩ هامش). وقال أبو الحسين ابن المبارك: الأخبار كلها (عن ذلك ـ أي عن بقائه ـ واهية الصدور والأعجاز، ولا يخلو حالها من أحد أمرين: إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالا، أو يكون بعضهم تعمد ذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾.. فما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان. ولم يثبت اجتماع الخضر مع أحد الأنبياء إلا موسى، كما قصّ الله خبرهما..

هذا ما ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخارى، وعقب عليه بقوله: وأما ما جاء عن المشايخ، فهو مما ينقم عليهم، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شخصًا لا يعرفه، فيقول له: أنا فلان فيصدقه؟..

فكل قول عن لقاء الخضر، وظهوره في بعض المواقف أو المعارك ـ ويرتبط بهذا تعدد قبوره ومشاهده، وانتشار لقاءاته في كتب الكرامات ـ كل أولئك لا أساس له من كتاب أو سنة أو مأثور.. هل نقول: أو عقل أودين؟

أطراف القصة:

أطلت الوقوف عند هذه النقطة التمهيدية، وذكرت مراجعها، لأن بعض ظلالها لا تزال ممتدة في بعض أبناء الإسلام وطوائفهم، بما تحمل من خرافة وتفتح أبوابا من الزيغ..

فأطراف القضية، موسى وفتاه والخضر، سبقوا إلى الله تعالى جميعا.. وبقيت بين أيدينا عِبَر القصة لا بعض شخوصها..

وتبدأ بعزم نبى من أولى العزم، هو موسى عليه السلام، ومعه فتاه يوشع بن نون، على رحلة من أجل العلم، يهون فيها بذل الجهد والوقت.. ويتبين هذا من قوله: ((أو أمضى حقبا)) فيتابع السير، لا يبرح ولا يزول عن هدفه ولو أمضى السنين بعد السنين.. والحقب لغويا ثمانون سنة.. والمقصود هنا هو: العزم والتصميم.

مجمع البحرين:

ولكن أين مجمع البحرين؟ أو ما المقصود من مجمع البحرين وهو موعد اللقاء؟.

يقول البيضاوى في تفسيره. ومجمع البحرين ملتقى بحرى فارس والروم مما يلى المشرق وعد لقاء الخضر فيه. وقيل البحران موسى والخضر ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فإن موسى كان بحر علم الظاهر والخضر كان بحر علم الباطن (أنوار التنزيل للبيضاوى ٢: ١٨)

ولكن هذا التعبير ((مجمع البحرين)) يستوقف النظر في القصة، وله نظائر تعطى شيئا من التعريف، أو بعض الصفة، دون أن تذكر من التفاصيل، ما يحول دون تعدد الآراء فيها. ألا يستوقف هذا نظر الباحث؟ فلنذكر نظيرا:

عندما قص الله علينا أمر الملك أو القائد العادل في آخر سورة الكهف، قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾.. ولم يذكر اسمه، واكتفى بهذه الصفة ((ذى القرنين)) وأن الذى قصه علينا القرآن هو بعض أمره ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾، وفى حركته غربًا وشرقًا وبين السدين.. جاء الحديث مجملاً في جوانب، مفصلاً في جوانب.

ومن قبل هذا، عند ذكر قصة الكهف، وذكر صاحب الجنة رأينا إجمالاً في جوانب، وتفصيلاً في أخرى.. بينما في القرآن أماكن ذكرها الله تعالى بكل تحديد، بحيث لا تدع أي مجال لتعدد الأقوال: أماكن ((محكمة)) مثل حديث القرآن عن مكة والبيت الحرام ومقام إبراهيم والصفا والمروة والمشعر الحرام وعرفات.. وتقابلها أماكن متشابهات ـ إذا جاز أن نستخدم هذا التعبير عن الأماكن، كما هو أمر بعض الآيات ـ يمكن أن تتعدد فيها الآراء..

دون أن يصل التعدد إلى الفتنة.. ولنستعد معا آية سورة آل عمران وفى ضوئها نحاول السير:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (آل عمران: ٧- ٩).

وكأن الله سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ـ يريد منا أن نتجه إلى مقاصد من الآيات، وننصرف عن مقاصد أخرى. يريد منا أن نبذل الجهد في جوانب، ونصرفه عن جوانب.

هناك إذن. منهج قرآنى.. مقصود.. وسنحاول أن نبين هذا المنهج، وفى ضوئه نسير في فهم الآيات والتراكيب القرآنية. والله المستعان.

٣٩ـ الأماكن في القرآن: بين المحكم والمتشابه

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾

فى التعبير القرآنى (مجمع البحرين) وصف مجمل يدع المجال لأكثر من تفسير.. هذا هو المقصود من المتشابه في الأماكن.. ولكن مع هذا فيه شئ من التحديد، تعين عليه أوصاف أخرى للمكان جاءت في سياق القصة.. وكل من الإجمال والصفات المساعدة، ينبغى ألا يشغلنا عن الهدف الأساسى من القصة وهو ما فيها من عبر.. بعض هذه العبر يتصل بنزولها، ويؤكد موقف المصطفى ﷺ والمنهج الذى عليه أن يتبعه مع قريش واليهود معًا، كما يوجه المجتمع الإسلامى إلى العناية بأساسيات القصص القرآنى الداعية إلى العمل والإنتاج في المجتمع، والإيجابية في الحياة.

قول الله تعالى: ((وإذ قال موسى لفتاه)) وما جاء في الحديث الشريف عن علم موسى ومكانته بين بنى إسرائيل، يجعل المكان الذى حدثت فيه القصة، والمرحلة التاريخية، هى الحياة في شبه جزيرة سيناء، بعد خروج بنى إسرائيل من وادى النيل، وبعد أن تلقى موسى وحى الله وكلماته وذهب إلى ميقاته وفى شبه جزيرة سيناء ـ أو على الأصح على أطرافها ـ ثلاثة أماكن مقترحة لتكون ((مجمع البحرين)):

الأول: منطقة رأس خليج السويس والقطاع الذى تشغله الآن قناة السويس.. وكان فيه فرع قديم للنيل يحمل الماء العذب إلى أجزاء من الشمال الغربى لسيناء.. وهو الفرع البيلوزى وكأن مجمع البحرين هنا نقطة من نقط الالتقاء بين الماء الملح والعذب.

الثانى: الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة وهى منطقة رأس محمد الحالية حيث يلتقى خليج العقبة وخليج السويس.

الثالث: الطرف الشرقى ورأس خليج العقبة في منطقة العقبة الحالية وفيها سلسة من المنخفضات في وادي عربة تصل إلى البحر الميت الأنهار التى تصب فيه..

فإذا نظرنا إلى الأوصاف المساعدة وجدنا قرى قريبة، ووجدنا حرفة الصيد ونقل المسافرين، ووجود حكم مستقر يمثله وجود ملك، وإن وصفه القرآن بقوله:

﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ مما يدل على وجود قوة عسكرية معه، تستطيع أن تقهر الملاحين في هذه المنطقة، مما يرجح أحد المجمعين الشرقى أو الغربى ويستبعد ـ إلى حد ما ـ المجمع الجنوبى.

ومما حفظ التاريخ أن أكثر الآثار المتعلقة بقصة موسى تقع في الجانب الغربى من شبه جزيرة سيناء، وهو إلى خليج السويس أقرب، وتتوفر فيه فرص الاستقرار..

وقد يكون مجمع البحرين مصب أحد الأودية الجبلية في شبه جزيرة سيناء في خليج السويس.. وهى أودية كانت أكثر عمرانا وأوفر مطرا مما هو الآن.. فيكون المجمع نقطة على خليج السويس هى فم الوادى حيث لقاء بين الماءين العذب والملح..

وإذا كانت حركة موسى وفتاه، وكل الذى ذكره القرآن من متاعهما مكتل وحوت.. أمكن استبعاد جميع المقترحات والفروض الأخرى التى قيلت عن مجمع البحرين وراء حدود سيناء.. وما يحمله هذا من غياب طويل، تنتفى معه العبرة من القصة والتوجيه فيها، وسرعة العودة إلى قومه، ليتعلموا منه ما تعلم من السلوك العلمى مع العبد الصالح.

المكتل والحوت:

نأتي الآن إلى الآية التى يعرف بها موسى العبد الصالح وواضح ـ ولا نملك إلا هذا القول ـ أن التوجه الأول إلى المكان المحدد كان بوحى من الله تعالى.. ولا يختلف الأمر عن توجه إلى النار في الوادى المقدس.

كل ما كان على موسى وفتاه أن يسير في الاتجاه الذى حدده الله له.. وعند نقطة معينه ستحدث من الله آية. كان معهما حوت لطعامهما.. ونعود إلى حديث ابن عباس عن أبى بن كعب عن الرسول ﷺ لنقرأ فيه أمر الله لموسى:

احمل حوتا في مكتل، فحيث تفقد الحوت: فهو ثم، فانطلق وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون، فحمل موسى حوتا في مكتل، فأنطلق هو وفتاه يمشيان، حتى أتيا الصخرة، فرقد موسى وفتاه، فاضطرب الحوت في المكتل، حتى خرج من المكتل، فسقط في البحر، قال: وأمسك الله عنه جريه الماء، حتى كان مثل الطاق (والطاق عقد البناء وجمعه أطواق، وهو ما عقد أعلاه من

البناء، وبقى ما تحته خاليا: النووى) فكان للحوت سَرَبا، وكان لموسى وفتاه عَجَبا.

ومع المكتل والحوت نذكر ما سبق أن أيد الله به موسى من معجزات كونية. العصا التى تنقلب حية. اليد البيضاء من غير سوء. شق البحر. تفجير الماء من الصخر. النار المقدسة التى تنير ولا تحرق. الجبل المرفوع كأنه ظله..

فحركة الحوت في المكتل واضطرابه وسقوطه في البحر، وتحول جريه الماء كأنها طاق، كان للحوت سربا.. هى فصل من قصة معجزات تتابعت في حياة موسى.. ثم إن الله أخبره بالآية.. كما جاء في الحديث الشريف. ولا نستطيع أن ندرك قصة المكتل والحوت بعيدة عن السياق العام لقصة موسى

وتقرأ قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ كان يوشع مسئولا عن المكتل والحوت. وفى حديث ابن عباس توضيح للجهد الذى بذلاه في السير.. وما يلقاه الإنسان في سفره قد ينسيه بعض أمره. ففى الحديث عن موسى وفتاه بعد الصخرة والحوت.

فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، ونسى صاحب موسى أن يخبره، فلما أصبح موسى ـ عليه السلام ـ قال لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذى أمس به. قال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، فإنى نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجبا، قال موسى ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا. قال: يقصان آثارهما((حتى أتيا الصخرة))ا.هـ.

وفى هذا الجزء من الحديث وقف الحافظ ابن حجر عند قوله فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما.. فلما أصبح على إرادة سير جميعه.. هل هو مقلوب، وأن المراد: بقية يومهما وليلتهما ذلك لأن الإنسان لا يصبح إلا عن ليل؟ أو لعل المقصود: فلما

أصبح من الليلة التى تلى اليوم الذى سارا جميعه. والله أعلم (جامع الأصول٢: ٣٠٣ عن فتح البارى ١: ٥٧).

الذي يستوقفنا الجهد المبذول، والإصرار على الهدف، حتى يقول موسى ـ وهو من أولي العزم من الرسل ـ ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴾ .. ثم ينظر فلا يجد طعاما، ولا يخبرنا القرآن أنه اشتد على يوشع في القول. فقد سارع الفتى بالاعتذار، وقبل موسى العذر، وسارا على الجوع يقصان الأثر حتى أدركا الصخرة ووجدا العبد الصالح.

فى مواقف أخرى نرى اشتداد موسى وعنفه وسرعة غضبه ومؤاخذته: حدث هذا عندما ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ (القصص: ١٥).

وحدث عندما عاد من ميقات ربه فوجد قومه يعبدون العجل:

﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٥٠).

ولكن في مواقف أخرى يرى منه رقة ومبادرة إلى عون الضعيف،وتوجيه القوة إلى عمل الخير، وادخارها للأفضل:

حدث هذا من قبل مع بنات الشيخ الكبير في مدين ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص: ٢٤).

وهاهو الآن يترفق مع فتاه، فلا يؤاخذه بما نسى، ولا يرهقه من أمره عسرا..

والآن: ماذا كان من أمره مع العبد الصالح؟